

## عام على ولي العهد.. كيف ضاعت هوية المملكة بين أقدام الفقيه والسلطان

عام على تولي الأمير محمد بن سلمان ولاية العهد في السعودية، ارتقي خلاله هرم السلطة بسرعة شديدة، فاستحوذ على مناصب رفيعة وأزاح كل من حوله في البلاط الملكي، ليرسم خلال فترة قصيرة ملامح سياسة أثارت تساؤلات كثيرة، سواء على مستوى انتقال السلطة داخل المملكة أم بما اشتملت من سياسات خلافية بشأن وجهة المملكة خارجيًا.

سعودية الملك وابنه لا تشبه السعودية القديمة

حفلات مختلطة ورقص وموسيقى وغناء، تلك فعاليات ترفيحية باتت تُنظَّم في كل مكان وفي أي وقت، لكن الوضع كان مختلفًا قبل قرنين ونصف من الآن حين تأسست المملكة العربية السعودية الأولى (1744 - 1818) - كما يجسد علمها - بين تحالف سيف آل سعود ومذهب الشيخ محمد بن عبد الوهاب، حيث اعتمد العرش على الولاء المطلق للقبائل ونفوذ المؤسسة الدينية الوهابية.

تلك في الأعراف السياسية شراكة بين السلطان والفقيه الذي وفر للمملكة مشروعيتها السياسية والدينية، فكلاهما يدعم الآخر وينتفع به، وهكذا كان يبدو الأمر دائمًا في الظاهر، لذلك كان خطاب المملكة السياسي والاجتماعي شديد الحساسية تجاه صورتها الدينية لأن الملوك السابقين كانوا مدركين للقدرة المشروعية.

تاريخ العائلة الملكية حافل بالمواجهات في دولة تعرضت لفتن داخلية، أزاحهم آل رشيد عن عاصمتهم الرياض فلجأوا إلى قطر عند حاكمها الشيخ جاسم آل الثاني، واستضافهم آل الصباح حكام الكويت لسنوات، ثم استرد عبد العزيز بن سعود إمارة الرياض، ونجح في انتزاع مملكة الحجاز من يد الهاشميين، حينها أُعلن تأسيس المملكة العربية السعودية (23 من سبتمبر 1932).

تساقط أولياء العهد، أبناءاً وأحفاداً، مفسحين الطريق أمام محمد ابن سلمان، حتى أصبحت المملكة دولة بلا محتوى سياسي أو فكري يمنح السلطة قوامها ومشروعيتها

صاهر الملك عبد العزيز شيوخ القبائل لتعزيز نفوذه وكون أسرة يزيد عدد أفرادها على 15 ألفاً، تداول الأبناء العرش من بعده واحتدمت المنافسة بين أفراد الأسرة في فترات مختلفة، لكن المملكة لم تجد في تاريخها القريب سنة "هائجة مائجة" كسنتها التي مضت منذ تولي الأمير محمد بن سلمان ولاية عهد أبيه قبل عام.

وتبأً تساقط أولياء العهد، أبناءاً وأحفاداً، مفسحين الطريق أمام محمد بن سلمان، حتى أصبحت المملكة - أو هكذا بدت لمنابعي شأنها - دولة بلا محتوى سياسي أو فكري يمنح السلطة قوامها ومشروعيتها، فالمشهد يتصدره أمير شاب يُوصف في تصرفاته بـ"الثور الهائج"، ومستشاران بدرجة رؤساء الدول وهما سعود القحطاني الذي يتولى إدارة العديد من الملفات السياسية، خاصة ضبط وسائل التواصل الاجتماعي.

أما المستشار الآخر كثير الألقاب فهو تركي آل الشيخ المسؤول الرياضي الأول في المملكة، الذي سيرتبط اسمه من الآن فصاعداً بكأس العالم في روسيا، حصداً لنتائجه ودمماً للاعبيه، وهو أيضاً كما يُطلق عليه "وزير تويتر"، وليس آخر جولاته الحرب التي تشهد تراشق التغريدات الحادة بينه وبين الاتحاد الأوروبي "اليوفا".

وتكشف السنة التي مضت من ولاية ابن سلمان للعهد قلة عنايته بأمر الميرر الوجودي في السلطة؛ أي مكونات الوجودي أو الأيدولوجي، فقد رآها سلطاناً مطلقاً أدواته السيف والحزم، متغاضياً عن مستحقات بقية العالم السعودي، إذ لأول مرة تبدو المملكة بغير حاجة إلى رجال دين وفُتية بعد أن تراجع سلطان المؤسسة الدينية واضطربت معدلات السيف والمذهب كما لم تضرب من قبل.

الزلزلة الاجتماعية ثمنها باهظ

الليبرالية الاجتماعية الجديدة التي أطلقها ابن سلمان وبلغت ذروتها في الحفلات المختلطة والسماح للنساء بدخول ملاعب كرة القدم وقيادة السيارات، قد لا تتوقف هنا، فالمطالبة ببقية "الليبرالية

السلمانية" لم تسكتها أمسيات "المدن المألحة" (نسبة إلى رواية مدن الملح الممنوعة سعودياً للروائي السعودي عبد الرحمن المنيف)، لأنها مرتبطة بأقدس مقدسات الليبرالية وهي حرية التعبير.

وحيث سأل رجال ونساء عن حدود الليبرالية كان جزاؤهم الاعتقال والسجن بسبب تغريدة أو خاطرة مكتوبة، حتى بات الحديث رائجاً عما أسمته منظمات حقوقية بـ"عهد الخوف" في السعودية الجديدة، بعد موجة من الاعتقالات التي طالت مثقفين ورجال دين وعلماء، ففي سبتمبر/أيلول الماضي دُشِّنت حملة من الاعتقالات ضد رموز ما عُرف بـ"تيار الصحوة"، حتى بلغ عددهم وفق منظمات حقوقية أكثر من 250، على رأسهم الشيخ سلمان العودة والشيخ عوض القرني والدكتور على العمري.

بدا للمرأة السعودية حق قيادة السيارات والتوجه إلى دور السينما، لكنها في نفس الوقت عُرضة للاعتقال حين حاولت ممارسة حريتها في التعبير

تلتها حملة اعتقالات أخرى تحت ذريعة "مكافحة الفساد"، استهدفت أعضاء في الأسرة الحاكمة ووزراء ورجال أعمال أُدعوا في فندق "الريتز كارلتون" حتى سُمي بـ"سجن الأمراء"، وفُرضت تسويات معهم بنحو 100 مليار دولار، وفي منتصف مايو/أيار الماضي أُعتقل 17 ناشطاً وناشطة حقوقية من التيار الليبرالي، حسب منظمة القسط المهمة بالجانب الحقوقي في السعودية، وكان من هؤلاء الناشطات لوجين الهزلول وإيمان آل نفجان وعزيزة اليوسف ومياء الزهراني.

بدا للمرأة السعودية حق قيادة السيارات والتوجه إلى دور السينما، لكنها في نفس الوقت عُرضة للاعتقال حين حاولت ممارسة حريتها في التعبير كالعديد من الناشطات ودعاة الإصلاح القابعات وراء القضبان، ولكن يبدو أنه سيتمنح حق القيادة هذا فقط للواتي يلتزم الصمت والهدوء، ويشبه ذلك مشهداً من فيلم "عبر زجاج الشرفة"، حيث تعلن الملكة الحمراء أن ما يبدو واضحاً هو العكس تماماً مما هو واضح في واقع الأمر.

لا يعرف أحد على وجه اليقين كم ستكلف الليبرالية الاجتماعية التي تخوض السعودية لجها بغير كتاب، كما يقول منتقدوها، فتحدي الفراغ الفكري سيواجه ولي العهد الحريص على خلق المملكة خلقاً جديداً، ولكن بلا فكرة تقوم مقام الوهابية التي تُزاح عن المشهد شيئاً فشيئاً، فالمملكة الجديدة لم تعرف هويتها بعد ما تكون.

اقتصاد المملكة.. كثير من الوعود، كثير من الأعباء أيضًا

ليست هذه المفارقة الوحيدة في العام الأول من ولاية عهد الأمير محمد بن سلمان، فكما كانت سنة ابن سلمان شحيحة في مجال حقوق الإنسان والحرية وإصلاح الحكم، كانت كذلك في وعود الاقتصاد، فقد وعد الأمير مواطنيه بتطوير اقتصاد المملكة ومحاربة الفساد، غير أن تقارير عدة تتحدث عن ثروته وبذخه، وتوقعات بنمو محدود بأقل من مستوى 2%.

وعلى قدر الوعود جاءت النتائج، فمنذ بداية العام الحالي طبقت المملكة أسعارًا جديدة للمشتقات النفطية بزيادة تراوحت بين 80% و120%، كما فرضت السعودية رسومًا مالية على المرافقين والمرافقات للعمالة الوافدة تتضاعف بدءًا من يوليو المقبل، ما تسبب في خروج العديد من المقيمين والبحث عن فرصة في دول أخرى.

وفي وقت وعد فيه الأمير الشاب بتوفير 1.2 مليون فرصة عمل في القطاع الخاص ضمن التحول الوطني في خطة 2020، بلغ معدل البطالة المعلن رسميًا بين السعوديين 13%، كما أن ميزانية عام 2018 تعاني عجزًا للعام الخامس على التوالي يتجاوز هذا العام 52 مليار دولار، بينما بلغ الدين العام نحو 182 مليار دولار العام الماضي.

في وقت وعد فيه الأمير الشاب بتوفير 1.2 مليون فرصة عمل في القطاع الخاص ضمن التحول الوطني في خطة 2020، بلغ معدل البطالة المعلن رسميًا بين السعوديين 13%

سيبقى سؤال الثروة وقسمتها من أكثر الأسئلة إلحاحًا في دول الريع النفطي (الدول التي تستمد كل أو جزءًا كبيرًا من إيراداتها الوطنية من بيع أو تأجير مواردها الأصلية)، فتجاور الغنى الفاحش والفقير المدقع يكشفان اختلال المعدلات الاقتصادية والاجتماعية.

ففي حين يشتري ولي العهد محمد ابن سلمان يختًا بـ500 مليون دولار، ولوحة للمسيح عنوانها "مخلص العالم" بـ450 مليون دولار بحسب صحيفة "وال ستريت جورنال" الأمريكية، وقصر في فرنسا بـ300 مليون دولار، فإن مئات الآلاف من العاطلين السعوديين سيكون عسير عليهم تصديق أي وعود في المستقبل، سواء ما تعلق منها بجودة الحياة في خطة 2020 أم برؤية المملكة في 2030.

يأتي ذلك بينما تقوم الحكومة السعودية بإجراءات اقتصادية تقشفية غير مسبوقه بهدف تقليل الضغط على ميزانية الدولة مع تراجع أسعار النفط خلال الأعوام الأخيرة، وفي ظل محاربة الدولة للفساد التي طالت أمراء ورجال أعمال كبارًا، من بينهم ابنا الملك عبد الله، متعب وتركي، ووزراء سابقون ورجال أعمال، فكم ستكون الضربة العنيفة التي تعرضت لها الأسرة المالكة في السعودية من جراء تثبيت سلطة ابن سلمان؟

يفعل الأمير ذلك فيفعل مستشاروه، فقد نشر موقع "ميدل إيست آي" البريطاني منذ يومين وثائق تثبت أن رئيس الهيئة الرياضية السعودية تركي آل الشيخ اشترى سيارة من نوع "بوغاتي شيرون" الرياضية التي كانت موجودة بمقر شركة بوغاتي في فرنسا بقيمة 18 مليون ريال سعودي (4.8 ملايين دولار) في سبتمبر/أيلول الماضي، أي عقب توليه منصبه بأيام قليلة.

وضع يتزامن مع تكلفة الحرب في اليمن، إذ قدرتها دراسة نشرتها مجلة التايمز الأمريكية بنحو 200 مليون دولار في اليوم الواحد، وهذا يعني أن السعودية أنفقت في عام واحد نحو 73 مليار دولار اعتمادًا على هذه الأرقام.

يأتي هذا بينما وقعت السعودية صفقات مع الولايات المتحدة بقيمة تجاوزت 460 مليار دولار، تبعتها 100 مليار دولار أخرى قدمها ابن سلمان خلال زيارته لواشنطن في مارس/أذار الماضي، ويعلق ابن سلمان على ذلك بأنه غني وعضو في العائلة المالكة الموجودة منذ مئات السنين.

سياسة ابن سلمان.. السعودية تصنع الشيء ونقيضه في الآن نفسه

تبنت المملكة مع بدء تصعيد ولي العهد السعودي نهجًا تصادميًا، فهنا حرب في اليمن، وقطية مع قطر واستنفار تجاه إيران، وشد وجذب مع ما يفترض أنهم حلفاء كالأردن والمغرب، كما صنعت المملكة سياستها الداخلية والخارجية بيئة ضد الاستثمار فيها بما خلقت من محاذير ومخاطر، فاعتقالات فندق الريتز ما زالت ماثلة عند كل ذي مال.

كما أن ما أقدمت عليه السعودية والإمارات في العام الماضي من حصار لقطر وإضعاف لمجلس التعاون الخليجي بلغ حد الإجهاز على فاعليته بإنشاء مجلس التنسيق السعودي الإماراتي، جعل المملكة تنخبط في سياساتها، حتى انتهت إلى إضعاف نفسها وحلفائها معًا.

فالسعودية تسير على الحبال المتراخية، فهي تريد بناء تحالف إسلامي سني ضد إيران، وتشن عاصفة الحزم ضد الحوثيين في اليمن، وبعد أكثر من 3 أعوام لم تتمكن من الانتصار على جماعة هي إلى المليشيا أقرب من الجيش النظامي، وفي متغيرات الحرب غير المحسوبة في اليمن أُطلق 119 صاروخًا على السعودية من اليمن، وذلك وفق التحالف الذي تقوده السعودية.

وبناءً على هذه الواقع الميداني، توقف عمل معظم الشركات في المنطقة الجنوبية، وأُخليت قرى ونُقل آلاف الأشخاص من المناطق الحدودية، وقدرت صحيفة واشنطن بوست الخسائر البشرية للمملكة في المناطق الجنوبية بنحو 2500 جندي بمناطق جازان ونجران وعسير.

لكن المملكة نفسها وهي تحشد لمواجهة إيران تعمد إلى إضعاف حليفها السني في لبنان، بعد المعاملة غير الكريمة التي تعرض لها زعيم تيار المستقبل سعد الحريري، وهو من كان يجب أن تدّخر قوته لمواجهة حزب الله وثيق الصلة بإيران مذهبًا وتسليحًا.

يدفع السودان بالآلاف من أبنائه للمشاركة في حرب اليمن، ويظل يتردى في أزمتة الاقتصادية على مرأى ومسمع قادة المملكة دون أن يخف أحد لنجدته، والنتيجة تنامي المشاعر الشعبية الرافضة للموقف السعودي بعد أن اشتبه عليه الفرق بين النفط والدم، فكلاهما لا يستويان. (الضغوط الاقتصادية مقابل الانسحاب).

وتستمر الضغوط حين يدخل الأردن ضائقة اقتصادية تهدد سلامه السياسي والاجتماعي، بينما الأشقاء الخليجيون في السعودية والإمارات يكتفون بالمشاهدة، بل قال الملك الأردني دون أن يصرّح إنه يتعرض لابتزاز سياسي لتغيير موقفه من "صفقة القرن" الضالعة فيها السعودية والإمارات لتصفية القضية الفلسطينية، ثم بدا للسعودية وقد رأت شارئًا أردنيًا يُذكَر بثورات الربيع العربي أن تسارع إلى عقد قمة من أجل الأردن الشقيق.

يدفع السودان بالآلاف من أبنائه للمشاركة في حرب اليمن، ويظل يتردى في أزمتة الاقتصادية على مرأى ومسمع قادة المملكة دون أن يخف أحد لنجدته

وعلى الصعيد الفلسطيني عُرف الملك فيصل بموقفه الداعم للقضية الفلسطينية، لكن اتهامات بالتطبيع

والتقارب مع "إسرائيل" طالت بعض خلفائه، واليوم يطمح بعض أحفاد مؤسس المملكة لتغيير ملامح المنطقة بمباركة أمريكية، فقد برز الملف الفلسطيني خلال ضغوط سعودية مورست على الفلسطينيين لتمرير "صفقة القرن" وقبول ما يُعرض عليهم من تسويات.

المغرب قصة أخرى في الخذلان السعودي، فقد انضم باكرًا إلى عاصفة الحزم التي فقد فيها طيارًا وطائرة، وحين طمح لاستضافة كأس العالم عام 2026، فاجأته السعودية بالتصويت ضده، وخذلته مع 6 دول عربية أخرى دعموا جميعًا ملف الولايات المتحدة، خارجين على قرار القمة العربية التي عُقدت في الظهران الذي دعا لدعم المغرب.

وحدها قصة اختراق النفوذ الإيراني عن طريق التقرب من التيار الصدري كان من الممكن أن تُوضع في ميزان حسنات ولي العهد السياسية لولا أن الصدر كان وفيًا لأصوله المذهبية والسياسية، فانتهدت المحاولة إلى فشل كبير، ربما لأن من فشل في بناء تحالف من الأقربين أجدر به أن يفشل في تأليف الأبعدين مذهبًا ومنهجًا في الولاء والبراء.